مآسي الرعب الموروثة من النظام العراقي السابق

المقابر الجماعية

U.S. Agency for International Development

الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية

مواقع أول مقابر جماعية اكتشفت في العراق

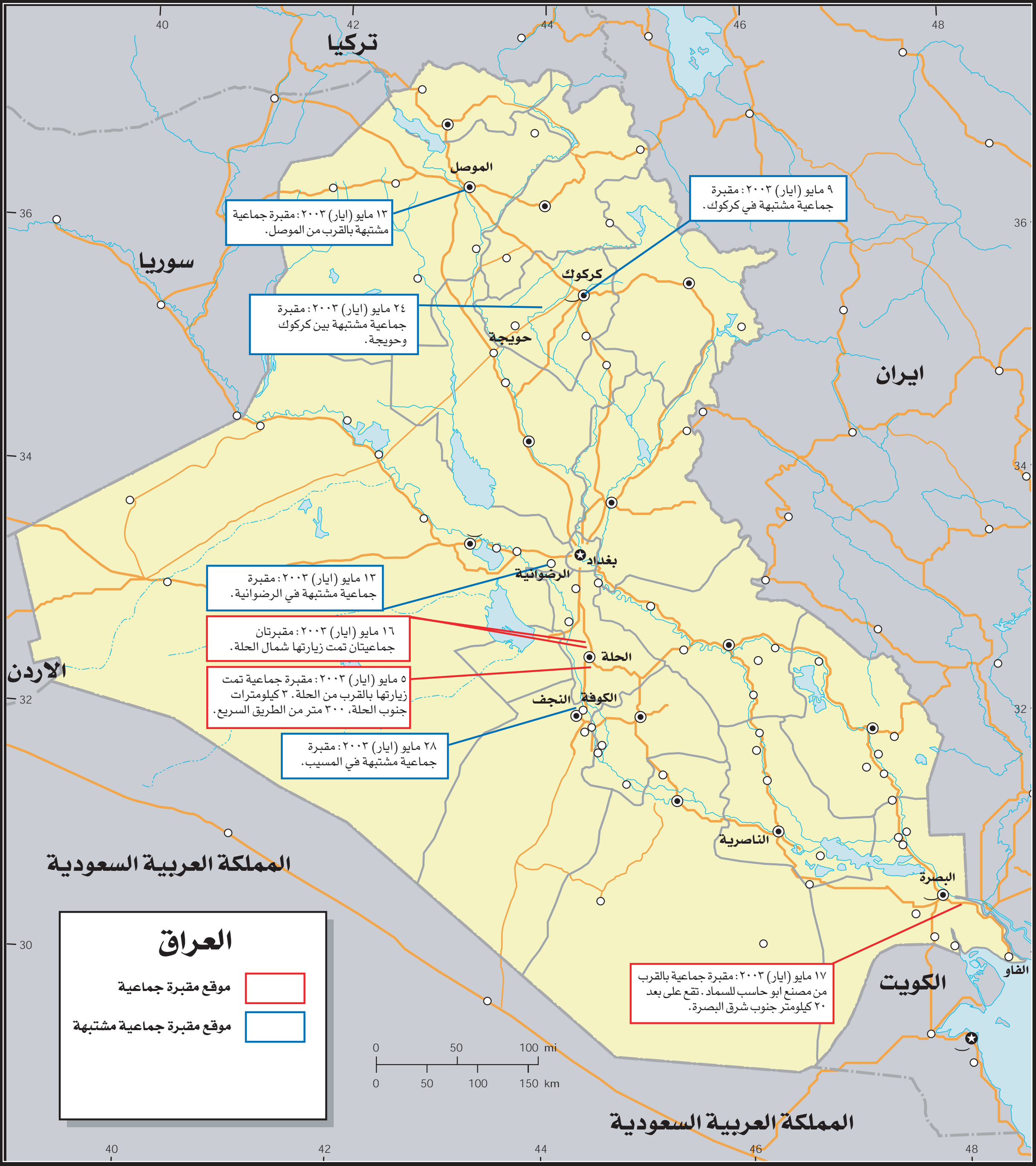

قام بن باربر المحرر الرئيسي في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بتحرير كتيب «المقابر الجماعية»، وساعده في ذلك ستيفن أبستين من مكتب المبادرات الانتقالية في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية.

صورة الغلاف الأمامي: عراقيون يبحثون عن جثث أقاربهم وأصدقائهم بين الضحايا الذين اكتشفت جثثهم في مقابر جماعية في منطقة المسيب الواقعة على بعد ٧٥ كيلومترا جنوب غرب بغداد. هذا ويعتقد بأن هذه الجثث تعود إلى الأشخاص الذين انتفضوا في عام ١٩٩١ ضد الحكومة العراقية. الجثث الملفوفة بأكفان من الكتان محفوظة في مشرحة مؤقتة قرب مركز الشبيبة.

صوّر جميع الصورة المنشورة في هذا الكتيب توماس هارتويل من الهيئة الأمريكية للتنمية الدولية، باستثناء الصورة الداخلية للغلاف الخلفي، التي التقطتها عدسة ساندرا هودجكينسون من وزارة الخارجية الأمريكية.

مأساة إنسانية هائلة

شهدت خلال خمسة عشر عاما من الأعمال الإنسانية الكثير من آثار المآسي الإنسانية الكبيرة، بما في ذلك مذابح الإبادة الجماعية الراوندية و«حقول القتل» الكمبودية. وفي حزيران (يونيو) ٢٠٠٣ قمت بزيارة مقابر جماعية عراقية، وهي آخر إضافة جديدة إلى سجل البشرية في القتل الجماعي.

فترى صفوف من الاكفان البيضاء تضم عظاما بشرية ملأت غرفا كثيرة، تقف عائلات أصحابها في طوابير تبحث عن أية علامة تشير إلى هويات أولئك الذين اختفوا. بعضهم ممن اختطف تحت جنح الظلام والبعض الآخر ممن اقتيد في وضح النهار، من بينهم أطفال صغار لم يسلموا من المجزرة.

وليست المقابر الجماعية التي حفرها أزلام صدام حسين وملؤوها بالبشر إلا دليلا مريرا على أن الطريق ما زال طويلاً أمام الإنسان لكي يعي أن لأخيه الإنسان حقوقا أساسية وعدت بها كل أدياننا وكفلتها حضاراتنا المتعاقبة، وهي الحق في الحياة والحرية.

لقد أبلغ السيد هوشيار زيباري وزير خارجية العراق الأمم المتحدة أن العراق كان في ظل نظام صدام حسين «نظاما استبداديا سافكاً للدماء أستمر لأكثر من خمس وثلاثين عاما». «إننا نقوم اليوم بنبش آلاف الضحايا من باطن الأرض وهو ابلغ شهادة على ذلك" على حد قول السيد زيباري».

سرت عبر السهول الرملية للعراق وشاهدت المقابر الجماعية التي تم العثور عليها للتو والتي بدأت تكشف النقاب عن أسرارها المأساوية وقصص الرعب والعار التي ترويها العظام البشرية: أذرعة آدمية مربوطة معا وجماجم مثقوبة من الخلف بفعل إطلاق الرصاص عليها. كل ذلك في خندق واحد طويل يضم رفات ضحايا صدام.

وقد توحد الناجون من عراقيي الداخل وأولئك الذين كانوا يراقبون بلا حول ولا قوة من الخارج مع بعض للبدء في عملية طويلة مؤلمة لإحصاء عدد الضحايا. وقد صرح رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٣ أن هناك حوالي ٤٠٠ ألف عراقي في المقابر الجماعية.

وان تعددت الأسباب فالقتل واحد، فالقتلى الأكراد لقوا مصرعهم لأسباب عرقية، والقتلى الشيعة أعدموا لأسباب مذهبية. أما القتلى من المصريين والكويتيين والإيرانيين فقد تم التخلص منهم لمجرد أن حياتهم لا قيمة لها عند صدام حسين وأولاده وأتباعه.

ومع سقوط النظام الملعون لصدام حسين في شهري نيسان وأيار (إبريل ومايو) عام ٢٠٠٣، ومع تقهقر القتلة الجماعيين من حزب البعث وانزوائهم في الظل، بدأ العراقيون يستعيدون أحزانهم السابقة الدفينة، بالبحث عن أحبائهم وذويهم الذين كان يتم تجميعهم في حملات من الرعب المتواصل عبر السنين. كانوا يسمعون قصصا وشائعات عن طلقات نارية في الليل، وعن عمليات دفن جماعية، وعن سجناء يختفون. وها هم اليوم يقتفون هذه الآثار الدموية في ركام الأرض التي يظنون أنها تضم فلذات أكبادهم وآبائهم وأمهاتهم.

لقد عمل القادة الجدد في مناطق الحلة وكربلاء والنجف وعشرات المدن والبلدات الأخرى في سائر أرجاء العراق جنبا إلى جنب القوات الأمريكية والبريطانية في محاولة لحماية بعض المقابر الجماعية وعدم المساس بها. إننا نأمل أن يتم المحافظة عليها والاحتفاظ بها كأدلة إجرامية على تلك الجرائم البشعة التي ارتكبت ضد الإنسانية.

وقد تم تشكيل مجموعات من منظمات حقوق الإنسان بمساعدة من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، لكي تقوم وبالعمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة بحض الناس على تسجيل أسماء الأشخاص الذين نبشت جثثهم ولكي يقدموا وصفا لظروف وملابسات احتجازهم وقتلهم.

ما من شك في أن ذوي القتلى يودون العثور على رفات أحبائهم وأصدقائهم لكي يؤدوا مراسم دفنهم حسب الأصول في مقابر تليق بهم، لكن الشعب العراقي يريد في الوقت نفسه كشف الحقائق أيضا، حتى يتم معاقبة أولئك الذين قتلوا مواطنيهم بقلوب قاسية لا تعرف الرحمة والذين كانوا يسوقونهم على متن حافلات تكتظ بهم لتحملهم إلى مواقع تصفيتهم، يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى.

واهم شيء هو انه إذا كان الشعب العراقي وشعوب العالم بأسره تأمل في أخذ العبر من جرائم الماضي، يجب في تلك الحالة القيام بتوثيق المقابر الجماعية في العراق وأن يتم الإبلاغ عنها، لكي لا تنسى أبدا ولكي لا يتسنى لأحد إنكار وجودها في يوم من الأيام.

وما هذا الكتيب الصغير إلا خطوة أولى على هذا الطريق.

أندرو ناتسيوس، المدير المنتدب
الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية
يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٤

مقابر العراق الجماعية

جثة أحد الضحايا الذين عثر عليهم في مقبرة المسيب الجماعية، وما زال صاحبها معصوب العينين.

تاريخ من الرعب

منذ الإطاحة بنظام صدام حسين في شهر مايو (أيار) ٢٠٠٣، وردت تقارير عن وجود ٢٧٠ مقبرة جماعية. وفي أواسط شهر كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٤ ارتفع رقم المواقع التي تم توثيق وجودها إلى ثلاثة وخمسين موقعا. بعض هذه المقابر يحمل عشرات الجثث التي ربطت أذرعتها معا، وجماجم مثقوبة بفعل إطلاق الرصاص من الخلف، لكي تكون أبلغ شهادة على إعدام أصحابها. كما أن هناك آلاف الجثث المكدسة في مقابر أخرى تمتد مئات الأمتار.

«لقد اكتشفنا للتو رفات ٤٠٠ ألف جثة في مقابر جماعية». هذا ما صرح به رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٢٠٠٣ في لندن. كما أشارت تقديرات الأمم المتحدة ووزارة الخارجية الأمريكية ومنظمة العفو الدولية ومنظمة مراقبة حقوق الإنسان إلى أن نظام صدام حسين قتل مئات الآلاف من الناس الأبرياء. وعلاوة على ذلك قدرت منظمة مراقبة حقوق الإنسان إلى أن عدد العراقيين الذين اختفوا في ظل نظام صدام حسين خلال العقدين الماضيين بلغ ٢٩٠ ألف عراقي، وذلك حسب النشرة التي أصدرتها المنظمة في شهر مايو (أيار). «ويبدو أن رفات عدد كبير من الذين اختفوا هي تلك التي بدأت تظهر الآن في مقابر جماعية تعم سائر أرجاء العراق».

سوف تقدم هذه الأرقام إن صحت دليلا على جرائم فظيعة ارتكبت بحق الإنسانية، لم يتجاوزها في الوحشية سوى مذابح الإبادة الجماعية في راوندا، التي ارتكبت عام ١٩٩٤ و«حقول القتل» في كمبوديا التي جرت في أعوام السبعينات، ومحارق الإبادة الجماعية، التي قام بها النازيون في الحرب العالمية الثانية.

تقارير القتل الجماعي

في مطلع الثمانينات بدأت التقارير عن القتل الجماعي تتسرب من العراق، مشيرة إلى أن البعثيين الموالين لصدام ورجال شرطته يقومون بتجميع أعضاء من حزب الدعوة ويقودونهم إلى حيث تنقطع أخبارهم بعد ذلك. كما أشارت مجموعات منظمات حقوق الإنسان إلى تجميع ١٨٠ ألف شخص من الأكراد وقتلهم في حملة «الأنفال» التي تم خلالها تدمير مئات القرى الجبلية. أما الذين تركوا على قيد الحياة من أبناء هؤلاء القرى، فقد تم نقلهم إلى مجموعات في مدن منعزلة ما زالت تشكل نقاط وصل في السهول الممتدة ما بين مدينتي كركوك والسليمانية. لقد ارتكبت هذه الجريمة بشكل مذهل، جعلها غير قابلة للتصديق من قبل الكثيرين الذين رفضوا إمكانية حدوثها، في ظل غياب الشاهد الرئيسي عليها، وهو جثث الضحايا.

وفي عام ١٩٨٨ أتى استخدام غاز الأعصاب السام وغاز الخردل ضد المدنيين الأكراد العراقيين في مدينة حلبجة، حيث قتل خمسة آلاف شخص خنقا في يوم واحد. وقد أصيب العالم بالذهول لهول ما حدث، ولكن مع ذلك، استمر أثر الأشخاص الذين تم تجميعهم في الأشهر والسنوات السابقة مختفيا.

وبعد حرب الخليج عام ١٩٩١، ثار الشيعة والأكراد، ولكن الانتفاضة سرعان ما سحقت بواسطة الدبابات العراقية والقوات الموالية لصدام حسين. وبينما حظي أكراد الشمال بحماية الطائرات البريطانية والأمريكية، شكلوا منطقة حكم ذاتي في شمال العراق بمأمن عن الاضطهاد، تعرض شيعة الجنوب إلى قمع وحشي، حيث اختفى على أثره عشرات الآلاف منهم.

إن الصفحات التالية تتضمن تقارير مباشرة من أفواه ثلاثة عراقيين نجوا من القتل الجماعي، كل منهم يروي ما حدث بطريقة لا يمكن لأي تقرير رسمي أن يضاهيها. ومع ذلك، ما زال على العالم أن يعرف حقائق وقائع ما حدث خلال تلك السنوات من وحشية وقمع تتقشعر له الأبدان، وكيف يمكن لحكومة عصرية، مجهزة بقوات عصرية من الجيش والشرطة أن تحول هذه القوات إلى أداة لقمع شعوبها.

تاريخ من الإنكار

رغم كل تقارير القتل الجماعي الذي كان يمارسه النظام العراقي، والتي قدمها طيلة السنوات المتعاقبة كل من الأمم المتحدة والحكومة الأمريكية ومنظمة مراقبة حقوق الإنسان والصحفيون الدوليون المستقلون وأقارب أشخاص أوقفوا ثم لم يعد لهم أثر، لم يتوان النظام العراقي عن إنكار هذه التقارير، رافضا السماح للأمم المتحدة بإجراء أي تحقيق وموصدا الباب بوجه مجموعات حقوق الإنسان.

«على غرار الأعوام السابقة، استمر النظام العراقي في إنكار قتل الأكراد على نطاق واسع في شمال البلاد خلال حملة «الأنفال» عام ١٩٨٨». هذا ما ذكره تقرير وزارة الخارجية الأمريكية الصادر عام ٢٠٠٢ حول حقوق الإنسان. «كما أن المبعوث الخاص للأمم المتحدة ومنظمة مراقبة حقوق الإنسان انتهيا إلى القول بأن سياسة النظام العراقي القمعية ضد الأكراد أثارت تساؤلات حول قيام نظام صدام حسين بارتكاب جرائم ضد الإنسانية، منتهكاً بذلك معاهدة الأمم المتحدة الموقعة عام ١٩٤٨ والتي تنص على منع المذابح ومعاقبة مرتكبيها».

ولم تظهر الحقيقة للعيان إلا بعد زوال النظام العراقي على يد القوات الأمريكية والبريطانية وقوات التحالف الأخرى في شهر مايو (أيار) عام ٢٠٠٣. ورغم أن إيجاد الدلائل والشواهد على الجرائم التي ارتكبها النظام العراقي بحق الإنسانية كان متوقعا بمجرد فتح صفحة العراق أمام الصحافة العالمية والمنظمات الدولية، لكن لم يخطر سوى على بال نفر قليل منهم بأنهم سيفاجؤون بهول المجزرة التي ارتكبها نظام صدام حسين بحق الإنسانية.

البحث عن المقابر

في مطلع شهر مايو (أيار) فر رجال شرطة صدام وميليشياته وجنوده من معسكراتهم وسجونهم وحقول القتل التي كانوا يزهقون فيها أرواح الأبرياء. على أثر ذلك، اندفع الآلاف من العراقيين، رجالا ونساء وأطفالا في رحلة محزنة إلى تلك المناطق التي كانت ممنوعة عليهم والتي كانوا يخشون أن يجدوا فيها ذويهم المفقودين من أطفالهم وآبائهم وأمهاتهم وأصدقائهم.

وقد وصلت التقارير عن اكتشاف مقابر جماعية إلى مسؤولي أول إدارة أمريكية في العراق وإلى مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية، الذي تم استبداله لاحقا بسلطة الائتلاف المؤقتة. وقد كان السيد سلون مان، خبير حقوق الإنسان التابع للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية من أوائل الواصلين من غير السكان المحليين إلى موقع ذلك الاكتشاف المؤلم.

يقول خبير الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية سلون مان: «سمعت في مطلع شهر مايو (أيار) عن وجود عظام آدمية في جنوب الحلة، وعندما وصلت إلى هناك بعد مضي يومين فقط على اكتشاف موقع المقابر الجماعية، رأيت الناس يحفرون الموقع بشكل عشوائي».

يتابع السيد سلون مان قائلا: «لقد كان الموقع منبوش، فالأطفال كانوا يسيرون وسط المقابر حفاة الأقدام، وقد كانت هناك عائلات كثيرة، بعضها يندب ذويه المفقودين والبعض الآخر كان هناك لمجرد الاستطلاع وإشباع الفضول».

وقف الخبير الأمريكي على حافة خندق طوله عشرون مترا وعرضه متران، حيث ظهرت أشلاء بشرية لـ ٢٥ مجموعة، كلها موجودة في أكوام مرتبة ببراعة، مع الملابس التي كان الضحايا يرتدونها عندما لقوا حتفهم. وقد كان عدد من الملابس يعود للأطفال، مما يدل على أن الصغار أيضا لم يسلموا من المجزرة البشعة.

الولايات المتحدة الأمريكية تمد يد العون

وحتى تتم مساعدة العراقيين على إخراج جثث ذويهم، سمحت سلطة الائتلاف المؤقتة للسيد مان ولعدد آخر من المسؤولين الأمريكيين بتقديم العون. وقد كان السيد مان جزءا من أول بعثة لوحدات منع الإيذاء البدني التي شكلتها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، لحماية حقوق الإنسان في حالات الطوارئ أو النزاعات. وقد قدمت هذه الفرق منحا مالية عاجلة لشراء كل المستلزمات، بدءا من الرفوش لنبش القبور وانتهاء بأجهزة الكمبيوتر لتسجيل أسماء الضحايا الذين كانوا يخرجون أشلاءهم من باطن الأرض. وقد تم تقديم المساندة المالية لتدريب العراقيين على إجراءات الطب الشرعي، وهو علم يحدد الأسباب القانونية للوفاة، وذلك بهدف الحصول على الشواهد والأدلة الكافية اللازمة لمحاكمة أولئك المجرمين المسؤولين عن جرائم القتل. كذلك تم تقديم المساعدات إلى عدة مجموعات عراقية لحقوق الإنسان، بما فيها اتحاد السجناء الأحرار واتحاد المحامين العراقيين، الذين بدؤوا بجمع قوائم عن العراقيين المفقودين، وعن المواقع التي يشتبه في أنها مقابر جماعية، بالإضافة إلى قوائم تضم أسماء الضحايا الذين تم التأكد من هوياتهم، علاوة على جمع الوثائق المتعلقة بظروف اختفائهم.

وقد تقدم في بعض الحالات، الحراس العراقيون السابقون وعمال دفن الموتى وحتى أولئك الذين نفذوا عمليات القتل، بمعلومات تفيد بما حدث. وقد ذكر بعض المتقدمين أنهم كانوا لا يستطيعون رفض أوامر الاعتقال والقتل، لأنهم لو فعلوا ذلك لانتهى أمرهم برميهم في تلك المقابر نفسها.

وقد اتخذ مسؤولو الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية وسلطة الائتلاف المؤقتة، العاملون مع العراقيين، قرارا سريعا يقضي بتقسيم المقابر الجماعية إلى ثلاث مجموعات كما يلي:

- **مواقع عبث بها بشكل عاطفي انفعالي**
  وهذه المجموعة تضم المواقع التي هرع إليها ونبشها ذوو القتلى الباحثين عن أشلاء الضحايا من أقربائهم وأصدقائهم المفقودين. وبما أن هذه المواقع تعرضت للنبش، وتعذر القيام بالتدخل لوقف ذوي المفقودين عن مواصلة البحث عن أشلاء مفقوديهم، تقرر تركيز المعونة الأمريكية على تدريب العراقيين في مجال مساعدة المجتمع نفسياً في التغلب على محنته ولجمع ما يمكن جمعه من معلومات حول أسماء الضحايا وظروف اختفائهم.
- **مواقع إنسانية لإخراج الجثث**
  وهذه المجموعة تضم مواقع يقوم فيها الأخصائيون العراقيون المدربون، بتعليم المجتمع كيفية جمع كل العظام البشرية والأشلاء الأخرى التابعة لكل ضحية والتعرف على الأشلاء بصورة صحيحة، بالإضافة إلى مساعدة أسر الضحايا في كيفية استخدام أفضل السبل للحصول على أدق المعلومات عما حدث لأحبائهم وأصدقائهم. إن الهدف الأساسي للحفر في هذه المواقع هو

التوصل إلى كشف هويات الأشخاص المفقودين، وهذا يضاف إلى جهود فرق الطب الشرعي المحلية التي سوف تقوم هي أيضا بجمع بعض الشواهد التي تساعد على كشف هويات الضحايا.

- **مواقع تحقيق إجرامي كامل**

من المتوقع اختيار ما بين ٨ إلى ٢٠ موقعاً لإخراج الجثث بشكل تام وذلك لأغراض خاصة بمعاقبة المسؤولين عن هذه الجرائم في المحكمة العراقية الخاصة التي تم تأسيسها مؤخراً من قبل مجلس الحكم العراقي لمحاكمة قضايا جرائم ضد البشرية وجرائم الحرب والإبادة العرقية.

المهام المنتظرة

خلال مؤتمر الدول المانحة الذي انعقد في شهر أكتوبر (تشرين الأول) بمدريد، تم تقديم طلبات إلى المجتمع الدولي للحصول على المعونات من كل المستويات، كالاعتمادات المالية وفرق الطب الشرعي والمعدات والمساندة المتعلقة بدفن الموتى وبرامج التدريب، بغرض مساعدة الشعب العراقي على كشف المقابر الجماعية. إن توفير هذه الهبات المالية والمساعدات الإنسانية أمر ذو أهمية كبرى لسنوات عديدة قادمة، يسير العراقيون خلالها قدما على طريق إجراءات المصالحة الوطنية، حسب ما تذكره السيدة ساندي هودجيكنسون، كبيرة مسؤولي الحقوق الإنسانية في سلطة الائتلاف المؤقتة. وقد قام المكتب الانتقالي لحقوق الإنسان والعدالة التابع لسلطة الائتلاف المؤقتة بإرسال طاقم إلى قطاعات مختلفة في المجتمع العراقي، حيث تحدث أفراده عن الحاجة إلى التحلي بالصبر والمحافظة على المواقع من النبش واحترام حرمة الموتى. لقد اكتشف العراقيون وسلطة الائتلاف المؤقتة وقسم تحقيقات الجرائم التابع للجيش الأمريكي حتى الآن ٢٧٠ موقعا يشتبه في أنها مقابر جماعية. ولكن كانت هناك بعض العوائق أمام عمليات البحث، حيث تبين في بعض الحالات ورود تقارير خاطئة عن وجود ما اشتبه بأنه مقابر جماعية بينما هو في واقع الأمر مقابر قديمة. كما تبين ورود بعض التقارير الزائفة التي كان هدف أصحابها من التزييف لفت الأنظار والحصول على المساعدات المالية.

واحد المصاعب الأخرى التي واجهت جهود العثور على المقابر الجماعية وتوثيقها هو ان مرتكبي جرائم القتل وغيرهم من الموالين لنظام صدام قد هددوا مجموعات حقوق الإنسان التي تقوم بجمع الأدلة على جرائم ضد الإنسانية. فقد تم مهاجمة منظمة السجناء الأحرار وحصلت محاولتي اغتيال.

أما العامل الآخر الذي أعاق عمليات البحث فكان رداءة الطقس، حيث منع هطول الأمطار فتح معظم المقابر الجماعية ليتأجل ذلك إلى شهر فبراير (شباط) ٢٠٠٤. ورغم تلك العوائق، بدأت الدفعة الأولى المكونة من ٤٠ محققا دوليا بالوصول إلى العراق في شهر يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٤. وسوف تكون مهمة هؤلاء المحققين تحضير الشواهد والإثباتات ووضعها أمام المحكمة العراقية الخاصة، وهي هيئة عراقية مهمتها محاكمة ما يقدر بستة آلاف شخص على صلة بجرائم عهد صدام حسين. وتقضي الخطة بالبدء في محاكمة علي حسن المجيد (الذي اشتهر باسم علي كيماوي) ابن عم الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين، المتهم بإصدار الأوامر بقصف السكان الأكراد بالغازات السامة عام ١٩٨٨.

وتشير السيدة هودجكينسون، المسؤولة في سلطة الائتلاف المؤقتة إلى أن الإجراءات العلمية المتبعة في إخراج الجثث بهدف التحقيق ستكون مماثلة لتلك التي اتبعت في البوسنة. لكن برنامج المقابر الجماعية سوف يكون في مجمله مختلفا جزئيا عن البرنامج الذي استخدم في البوسنة، كما أن برامج تحديد هويات الأشخاص المفقودين سيكون مختلفا أيضا، وهو الذي استخدم في إخراج ٨٠٠٠ جثة من أصل ٣٠٠٠٠ حتى اليوم، من التي يعتقد أنها دفنت نتيجة للصراع هناك.

إن المقابر الجماعية لا تظهر للعين غير الخبيرة. فالكثير منها مخفي تحت أطنان من التراب أو مخبأة في معسكرات لا يمكن الدخول إليها. لذا تم تسخير الأقمار الصناعية والهوائيات التصويرية لتحديد التربة المنبوشة. كما تقوم رادارات كشف التربة بالمساعدة على تحديد مواقع الأشلاء البشرية أيضا.

وعندما يتم تحديد أحد المواقع، تنطلق إليه مجموعة من الأخصائيين، تضم الناجين وعالم الآثار وعالم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعالم طبقات الأرض وضابط موقع الجريمة وأخصائي التقاط الصور عبر الأقمار الصناعية، علاوة على المساندة العسكرية بهدف تقدير الأمور وتقييمها.

لقد قام المكتب الانتقالي لحقوق الإنسان والعدالة التابع لسلطة الائتلاف المؤقتة بجمع قائمة تضم ٢٧٠ موقعا في أرجاء العراق، عدد كبير منها يقع في المناطق الجنوبية الغربية والوسطى حول نهري دجلة والفرات، حيث يتطلب إخراج الجثث معدات ثقيلة، بالإضافة إلى وجوب استخدام الحفارات ومشارح الجثث والحماية الأمنية والمساعدة العسكرية وخبراء التفجير. كما أن الفريق المكون من ٢٠ إلى ٣٠ شخصا، سوف يحتاج إلى أماكن إقامة لمدة تتراوح ما بين أربعة إلى ستة أسابيع.

وقد صرح السيد عبد الباسط تركي وزير حقوق الإنسان العراقي أن العثور على المفقودين بالإضافة إلى كونه ضروري وملح للأقارب، فان نبش القبور الجماعية غاية في الأهمية للعثور على الشواهد والإثباتات التي تتيح للشعب العراقي محاكمة المجرمين من أعضاء النظام السابق.

العراقيون لم يكونوا الضحايا الوحيدين

لم يكن المواطنون العراقيون هم الوحيدون الذين اختفوا وانتهوا في المقابر الجماعية.

«رغم الاتصالات المتبادلة مع الكويت والمملكة العربية السعودية وإيران، والتي نشرت على نطاق واسع، تجاهل النظام العراقي بفعالية، كل ما طلبته هذه الحكومات لتحديد المسؤولية عن أولئك الذين اختفوا خلال الاحتلال العراقي للكويت عام ١٩٩٠–١٩٩١ وأسرى الحرب الذين اعتقلوا خلال الحرب العراقية الإيرانية في أعوام ١٩٨٠–١٩٨٨». هذا ما أشار إليه تقرير وزارة الخارجية الأمريكية.

عمال يقومون بنقل بقايا الضحايا من مقبرة جماعية. بعد تحديد هويتهم، يتم لف الجثث في أكفان من الكتان وتؤخذ إلى مشرحة مؤقتة.

وبعد تحرير العراق، ظهرت تقارير تفيد أن جميع الكويتيين الذين أسروا ونقلوا إلى العراق من قبل القوات العراقية المتقهقرة عام ١٩٩١ والبالغ عددهم ٦٠٠ أسير كويتي، أعدموا جميعا.

كما ذكر المسؤولون المصريون بأنهم يبحثون عن معلومات تتعلق بمئات وربما بألوف المواطنين المصريين الذين ماتوا أو اختفوا بعدما سافروا إلى العراق للعمل خلال الحرب العراقية الإيرانية. وقد أعيد الكثيرون منهم إلى مصر في توابيت، من دون أية إيضاحات حول أسباب وكيفية وفاتهم.

خطة للعمل

لقد قام المسؤولون عن المساعدات الخارجية من عراقيين وأمريكيين بتحضير خطة طويلة الأجل لحفر المقابر تفي بجميع الاحتياجات الإنسانية والوجدانية والقرارات القضائية المتعلقة بالمقابر الجماعية. وتقضي الخطة بأن يتم أولا تحديد عدد من العراقيين ذوي المهارات في علوم أنثروبوجيا الطب الشرعي أو علوم الآثار، لكي يتلقوا التدريبات اللازمة على يدي خبراء دوليين في الطب الشرعي. بعد ذلك سيطلب من المجتمعات المحلية تقديم توصيات في اختيار أكاديميين واختصاصيين يودون تعلم المبادئ الأساسية لعلم الطب الشرعي، حيث يجتازون دورات في عمليات التدرب على استخراج الجثث، بالإضافة غلى تعلم المبادئ الأساسية لتشريح الهيكل العظمي بهدف تسهيل عملية تحديد هويات الضحايا.

وقد تم أيضا تخطيط المكونات الأساسية لكي ما يحقق عملية استخراج الجثث، كمراسم النبش والمعايير التي تتبع في إجراءات العمل في سائر أرجاء البلاد، وطرق الإدارة والمساندة اللوجستية (التموين والإمداد). إن البناء يجري على قدم وساق لتحديث مركز تخزين يتم إعداده لكي يكون في النهاية، المستودع الرئيسي الذي يضم كل الأدلة والشواهد. وقد تم أيضا تمويل المنظمات العراقية المحلية لحقوق الإنسان لزيادة طاقتها في تنظيم وجمع الوثائق والشواهد وأسماء المفقودين. وسوف يتم ضم كل ذلك في النهاية إلى برنامج يعتبر مرجعا أساسيا للأسر التي تبحث عن معلومات تتعلق بذويها المفقودين. وسيتم وضع كل المعلومات التي تجمعها المنظمات المحلية في قاعدة بيانات ومعلومات شاملة، لكي يتم بعد ذلك عرضها على منظمات حقوق الإنسان في كافة أرجاء العراق.

إن الجهود تبذل على قدم وساق لجمع وتحقيق وضم المعلومات التي تتوفر عن المواقع التي يشتبه في أنها قبور جماعية. وقد وصل فريق طب شرعي دانمركي إلى العراق في شهر أكتوبر (تشرين أول) الماضي، وكان يتوقع أن يصل بعده مباشرة فريق فنلندي. كما عرضت الحكومتان السويدية والألمانية مساعدات على مستويات مختلفة. والى ان تتواجد جميع الفرق الدولية في العراق، ستنصب جهود أخصائيي الطب الشرعي على تقييم مقابر جماعية أعطيت صفة الأولوية في البحث، وعددها يتراوح من ٨ إلى ١٦ مقبرة، تم اختيارها بعناية ودقة، لكي تستخرج منها الجثث المدفونة، بطريق تتوافق كليا مع إجراءات الطب الشرعي الكاملة على الأسس التالية:

- المقبرة تمثل حقبة زمنية رئيسية في تلك الممارسة الوحشية
- المقبرة لم تتعرض نسبيا للنبش
- المقبرة يمكن أن تعطي دليلا على ارتكاب جرائم بحق الإنسانية

بقايا ضحايا اخرجت من مقبرة جماعية في المسيب يتم التحضير لاعادة دفنها من قبل افراد اقارب الضحية.

- السكان المحليون يسمحون بتأمين الموقع وإخراج الجثث

وقد بدأت حملة إعلامية للتوعية عبر صحيفة «الصباح» العراقية اليومية وعبر شبكة الإعلام العراقية ووسائل الإعلام الأخرى، لشرح مدى الحاجة إلى حفظ مواقع المقابر وعدم المساس بها. إن نشر هذه الحملة على نطاق واسع على المستوى الوطني سوف يساعد على تحديد هويات المفقودين ويشجع المواطنين على التقدم بالشواهد التي تدل على ارتكاب تلك الفظائع. ومع أن هناك عدد قليل فقط من حالات انعدام الصبر لدى بعض السكان المحليين حول عملية نبش الجثث، يجب على القادة المحليين ورجال الدين ووسائل الإعلام والمنظمات غير الحكومية مواصلة المشاركة في بذل الجهود لحماية مواقع المقابر والاستمرار في حث المواطنين على التحلي بالصبر حتى تتم عمليات نبش الجثث بحسب الأصول.

بإعلانه عن تشكيل محكمة وطنية لمحاكمة المجرمين، قطع مجلس الحكم العراقي شوطا رئيسيا على طريق حل قضية القتل الجماعي. ان ذلك سيكون الفصل التالي غير المدون في هذه القصة. ■

روايات الناجين

في ما يلي ثلاث شهادات من الذين نجوا من الإعدامات التي جرت خارج مدينة المحاويل، وهي بلدة تقع شمالي مدينة الحلة، على بعد حوالي ٦٠ ميلا من العاصمة بغداد.

رواية علي ؟

علي*، رجل يبلغ ٣٦ عاما، كان يعمل ميكانيكي طائرات وكان يقود سيارته التي تنقله مع عائلته من الحلة إلى مزرعته في بلدة المحاويل في السادس من شهر مارس (آذار) ١٩٩١، خلال الانتفاضة التي قام بها الشيعة في نهاية حرب الخليج، والتي كانت المدينة أثناءها تتعرض للقصف.

تم توقيف علي مع عائلته عند نقطة تفتيش عسكرية خارج المدينة قرب مصنع للطوب وطلب منه أن يترجل من سيارته، بينما طلب من زوجته ومعها رضيعها المولود حديثا، بالإضافة إلى والدته العجوز المعاقة بالاستمرار في القيادة.

طلب من علي أن ينزع سترته، حيث قام عدد من الرجال الذين يرتدون البزة العسكرية بتقييد يديه ورجليه بسترته وبقطع أخرى من القماش ووضعوا عصابة على عينيه.

ولكن علي استطاع أن يرى من خلال عينيه المعصوبتين، حيث شاهد حوالي ١٢ شخصا آخرين بينهم الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، يسحبون من السيارات ثم يقيدون وتعصب أعينهم.

بعد ذلك تم سحب هؤلاء إلى سيارة من نوع تويوتا لاند كروزر حيث وضعوا في كوم فوق بعضهم البعض على المقاعد. لم يتحدث أحد بكلمة واحدة لأن مصير بعض الذين حالوا التكلم كان التعرض إلى ضربات في الرأس والبدن.

كان الساعة حوالي العاشرة صباحا عندما وصلوا إلى معسكر المحاويل الواقع في ضواحي المدينة، حيث تم إنزالهم من السيارة، وتسجيل أسمائهم واقتيدوا إلى حيث تم وضعهم في قاعة تجميع كبيرة مليئة بحوالي ٢٠٠ شخص، كل منهم يجلس على أرض القاعة مقيد اليدين والرجلين. كانت أعينهم معصوبة ويواجهون جدران القاعة.

وقد وضع علي أمام الباب حيث كان يشاهد ما يجري في الخارج. وفي حوالي الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر أقام الجنود حلقة كبيرة من الإطارات المطاطية قطرها ٢٠ قدما وأضرموا النار فيها. وكان إلى جانب كتلة النار حافلات نقل كبيرة. وفي هذا الوقت قام الجنود باقتياد الأشخاص المحتجزين داخل القاعة إلى الحافلات المتوقفة إليها، وفي الوقت نفسه كان الجنود يخرجون عددا من الأشخاص المحتجزين من القاعة ويرمونهم وسط النار المشتعلة. ويعتقد علي أن الجنود كانوا يستعجلون قيادة الأشخاص المحتجزين إلى حيث يتم إعدامهم. وبما أن حافلات النقل لم تكن تتسع لهم جميعا، قرر الجنود التخلص من عدد منهم، برميهم أحياء في النيران المشتعلة. بعدما رأى علي هذا المشهد الذي استمر لمدة ثلاثين دقيقة، اقتيد هو بدوره من القاعة إلى إحدى الحافلات.

في حوالي الساعة السادسة مساء، اقتيدوا في جولة قصيرة إلى منطقة مستنقعية بجوار مصنع الطوب. كان الظلام قد حل حيث شاهد مصابيحا أمامية أضيئت أمام الحافلات، تعود على الأرجح لسيارات لاند كروزر يقودها رجال صدام. كان يسمع دوي إطلاق الرصاص لكنه لم يكن يسمع أية أصوات أخرى، مما جعله يعيش حالة خوف ورعب جعلاه شبه مشلول. كل من كان في الحافلة كان معصوب العينين.

بعد مرور حوالي ربع ساعة، انطلقت الحافلة التي كانت أمام الحافلة التي أركب فيها، وبدأت الأضواء مسلطة مباشرة على حافلته التي تم إخراج سبعة إلى عشرة أشخاص منها. بعد ذلك مباشرة عادت أصوات العيارات النارية تمزق سكون الليل. وبدأ الهلع يدب في قلب علي لأنه سيكون واحدا من الدفعة التالية التي سيتم إخراجها من الحافلة. وكان هناك رجل كفيف في هذه المجموعة، وثلاثة أشقاء، وامرأة مع ولدها

* تم تغيير كافة الاسماء.

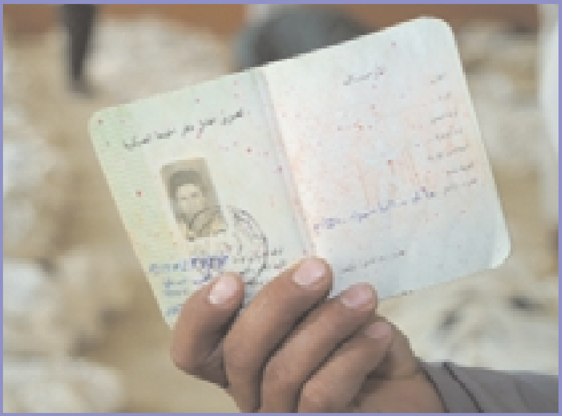

بطاقة هوية وجدت في مقبرة المسيب الجماعية.

نساء عراقيات يحاولن معرفة هوية بعض المفقودين من أفراد اسرهم.

أشلاء أخرجت من مقبرة جما

ذي الخمس سنوات. وجاءت اللحظة الحاسمة واقتيدت المجموعة التي تضم علي إلى خارج الحافلة حيث وضع الجميع أمامها والأضواء الكاشفة مسلطة عليهم مباشرة. تم رميهم جميعا على الأرض دفعة واحدة وبدأ سحب كل منهم على حدة لمواجهة الإعدام. كانوا يدفعون إلى مسافة قدمين من حافة المستنقع وتطلق عليهم النار. كان الرعب يجعل معظم المحتجزين يسقط قبل أن تصل الرصاصات إلى جسده. ولا يتذكر علي أنه سمع أي كلمة باستثناء الأخوة الثلاث الذين كانوا يتوسلون الجنود لكي يبقوا واحدا منهم على قيد الحياة على الأقل. لكن التوسلات لم تجدي وسقط كل واحد منهم بعد الآخر قتيلا برصاص رجال صدام.

بعد ذلك أطلقت النار على المرأة أمام صغيرها البالغ خمس سنوات. قفز الصغير على رجلي الجلاد وسرعان ما تم رفسه بعيدا ليتلقى رصاصة مزقت جمجمته الصغيرة. تلا ذلك إعدام الرجل الكفيف الذي انفجر صدره على جسد علي.

كان هناك ثلاثة جلادين يتناوبون في إطلاق النار وإعادة تلقيم مسدساتهم لجولات جديدة من إطلاق الرصاص. كان علي آخر واحد يفترض أن يلقى مصرعه في هذه المجموعة. وعندما أطلق الجندي الرصاص بين رجلي علي عوضا عن إطلاقها عليه، لقي ذلك الجندي مصرعه في الحال بزخات من الرصاص أطلقها عليه زميله. في هذه الأثناء استغل علي انشغال الجندي بزميله وقفز فوق الجثث الممزقة باتجاه المستنقع ليسبح في المياه الضحلة التي لم تحميه من الرصاصات التي انهمرت عليه حيث أصابته إحداها في يده اليسرى وأخرى في ساقه. لكنه رغم الإصابة، تحامل على نفسه وواصل السباحة حتى وصل إلى الضفة الأخرى من المستنقع.

بعد ذلك بقليل لاحظ علي وجود جرار يحمل بعض الجنود ويسير في اتجاهه باحثا عنه. فما كان منه إلا أن ألقى ثوبه في المياه واختبأ في أعواد القصب الكثيفة لينجو بنفسه. وفور مشاهدة الجنود للثوب، ظنوه عليا فأطلقوا على الثوب زخات من الرصاص ليعودوا بعد ذلك من حيث أتوا وهم يظنون أنهم نالوا منه. بعد ذلك حضرت جرافة عسكرية أخرى بدأت تجرف التراب والأحجار على ما كان سائقها يظن أنه جثة علي، الذي تساقطت عليه بعض الأحجار وطمرت جزءا من جسده بينما كان يراقب كل ما يجري من مسافة قريبة، مما جعله يدخل في غيبوبة قصيرة استفاق بعدها على صوت الجرار الذي غادر المنطقة. في هذه الأثناء أخرج علي نفسه من الكومة التي كاد يلقى حتفه فيها، زاحفا إلى قناة فارغة، وهو يسمع صدى إطلاق الرصاص في المكان الذي غادره والذي كانت حافلة أخرى محملة بالمحتجزين تصل إليه ليلقى من فيها إعدامهم.

واصل علي الزحف داخل القناة لمدة حوالي نصف ساعة أدرك بعدها أنه وصل إلى منزل زراعي، حيث آوه صاحب المنزل الذي أخبره في ما بعد أنه كان «كتلة من الدم» عندما شاهده. لا يذكر علي شيئا عن العناية التي تلقاه في ذلك المنزل باستثناء أنهم سقوه بعض اللبن ووضعوه أمام مدفأة قريبة. لقد كان أفراد تلك الأسرة يعرفون أعمام علي. لذا جلبوا له ما يلبسه وزودوه بحمار وعصا، وطلبوا إليه السير على طول القناة التي ستوصله في النهاية إلى منزل أحد أعمامه. ونجح علي في ذلك، حيث قام عمه بتنظيف جسده وأخذه في اليوم التالي إلى بغداد حيث اختبأ لمدة شهر كامل من دون أن يعلم أحد بمكانه سوى عمه. بعد ذلك عاد إلى منزله ليكتشف أن شقيقيه قد أعدما في ظروف مماثلة لما تعرض له هو وما شاهده.

بعد ذلك ترك علي ذلك الحي واستبدل اسمه باسم آخر، بالإضافة إلى أن أحد جيرانه من ضباط المخابرات زوده بالحماية. وعندما انهار نظام صدام، استعاد علي هويته الأصلية بعدما أخفاها لمدة تزيد على ١٢ عاما. وقد أصبح علي الآن عضوا في اتحاد حقوق الإنسان في الحلة. ■

...عية يتم تحضيرها لإعادة الدفن.

عراقيون ينظرون إلى قوائم الضحايا الذين أخرجت جثثهم من مقبرة المسيب الجماعية.

بعد تحديد الهوية والتحضير لإعادة الدفن، أحد الضحايا ينقل من المشرحة ويسلم إلى ذويه.

رواية مهند

مهند* البالغ من العمر ٣٢ عاما هو من أهالي الحلة، وقد عمل ممرضا في الجيش من العام ١٩٨٤ إلى العام ١٩٩١. وقد عين في منطقة الشمال خلال انتفاضة الشيعة عام ١٩٩١. وفي ٥ آذار (مارس) استقل حافلة تنقله إلى الحلة لزيارة والديه. وكان الفصل شتاء ووصل إلى منزل والديه في الصباح المبكر. وبمجرد اقتراب الحافلة التي كان يرتادها إلى مصنع الطوب، واجهت وحدة عسكرية قرب تمثال صدام، أوقفت الحافلة ومنعتها من الدخول إلى المدينة. وقد أبلغ سائق الحافلة أن المدينة تخضع لحظر التجول وأن عليها العودة إلى بغداد، مما جعل عددا من الركاب وبينهم مهند، يترجلون من الحافلة للسير على الأقدام إلى الحلة وبينهم ستة من أفراد الجيش بلباسهم العسكري، ورجل مسن وطفلان وامرأة. وحينما شاهدتهم وحدة الجيش المتمركزة يقتربون منها، اقتادتهم جميعا إلى الاحتجاز. وعندما رفض أحدهم الذهاب، انهالوا عليه بالضرب أمام الجميع، ولم يكن أمام الباقين سوى الانصياع لأوامر تلك الوحدة التي قادتهم إلى حافلة عسكرية أركبوهم فيها من الخلف. وقد كان نصيب من رفض الصعود عدد من الركلات والضرب والاتهام بالخيانة.

اقتيد هؤلاء إلى معسكر المحاويل حيث أوثقت أيديهم إلى ظهورهم وتم تعصيب أعينهم، لينتهوا إلى قاعة كبيرة للتجميع. كان مهند يسمع بعض الهمس، لكنه لم يصدق أن هناك أعدادا كبيرة من المحتجزين في القاعة في ذلك الوقت. جلس على أرض الغرفة وغلبه النعاس فنام. وحوالي الظهر استيقظ على ركلة من أحد محتجزيه الذي سأله عن اسمه، ثم ليتركه يعود إلى النوم. واستيقظ مهند حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر ليجد أن القاعة امتلأت بعدد يزيد على ١٠٠ شخص. كان وثاقه قد حل قليلا وكان في إمكانه مشاهدة ما يجري. شاهد أحد جيرانه وشاهد أيضا علي الذي ذكرت روايته آنفا. وقضى الجميع يوما كاملا من غير ماء أو طعام أو السماح لهم باستخدام المرافق الصحية لقضاء الحاجة، مما جعل المحتجزين المضطرين يقضون حاجتهم حيث يجلسون.

* تم تغيير كافة الاسماء.

وفي الساعة ٥ مساءً، بدؤوا بتركيب المحتجزون في الحافلات. وكان مهند في مؤخرة القاعة ومن بين آخر من تم أخذهم إلى الخارج. ولم يكن هناك ضوء في القاعة، ولكن من خلال النوافذ استطاع مشاهدة وميض نار كبيرة. وكان بامكانه شم رائحة عطب المطاط.

كان المحتجزون يقادون إلى الحافلات في مجموعات تبلغ كل منها ٢٠ محتجزا. كما أن البعض منهم اختير ليرمى في النار. كان مهند ومن معه يسمعون صراخ وعويل الذين يحترقون. وصرخت امرأة في وجه أحد الجنود قائلة: «لماذا تحرق هؤلاء الناس؟» فكان الرد: «إنهم مجرمون» يستحقون العقاب، مما جعل مهند يشعر بالطمأنينة لأنه لم يرتكب أي خطأ يعرضه لما تعرض له هؤلاء.

وبينما كانت القاعة تفرغ تدريجيا، أشار احد الجنود إلى مجموعة مهند قائلا: «خذهم، لقد وقع النقيب عبار أوراقهم». لم يفهم مهند ماذا يعني ذلك وبدأ يصرخ ويبتهل. وعندما خرج من القاعة كانت النار لا تبعد سوى ثلاثة أو أربعة أمتار عن المدخل. وكان مصير أي واحد يسير ببطء أو كان من الذين أوثقت أرجلهم، يرمى في النار. أما الباقون، وبينهم مهند، فقد اقتيدوا إلى الحافلات.

حوالي منتصف الليل اقتيد الجميع إلى طريق موحلة بجانب المستنقع خلف مصنع الطوب. كان المستنقع على أحد جانبي الطريق وكانت هناك قناة على الجانب الآخر. شاهد سيارة تويوتا لاند كروزر وجرافة على حافة المستنقع. وقامت اللاند كروزر باستخدام مصابيحها الأمامية كأضواء كاشفة على مقدمة الحافلة عند حافة المستنقع.

قام أعضاء حزب البعث بتفريغ سيارة اللاند كروزر مع حافلة أخرى وبدؤوا يملأونهما بالأسلحة.

اقتيد مهند والآخرون من الحافلة إلى حيث أجبروا على الركوع عند حافة المستنقع في صفوف عدة، كل منها ستة أشخاص. وكانت هناك جثث ملقاة عند أقدامهم. ونهضت امرأة من بين الجمع لتقوم بحركة لفت فيها نفسها داخل ثوبها الأسود الطويل علامة الحداد، وهو من طقوس الجنازات. ومع أن مهند كان معصوب العينين، لم تكن يداه مقيدتان، مما مكنه من سحب بطاقته الشخصية ليخبئها في إحدى جيوبه الداخلية آملا في أن يتم التعرف عليه بواسطتها في حال تم إعدامه. كل الحاضرين كانوا يبتهلون ويصلون.

عراقيون يحفرون بحثا عن بقايا ذويهم.

عراقي يحمل اسم أحد الضحايا على قطعة من الورق، باحثا عن صاحبها في لائحة الضحايا.

عمال يحددون هويات بقايا الضح
عندما يتم تحديد هوية أحدهم، ي
مؤقتة.

وقف ستة من أعضاء حزب البعث أمام وعلى جانب الصفوف الراكعة. كان مهند في الصف الخلفي على مسافة قريبة جدا من المستنقع. الأضواء الساطعة سلطت عليهم، وكان هناك رجل مصري ضخم الجثة يقف أمام مهند كان يواصل التساؤل عن أسباب تعرضهم للإعدام. في تلك اللحظة انطلقت رصاصات قاتلة لتمزق جسد المصري الذي قفز على رجليه بعدما مخر الرصاص جسده الذي هوى على مهند ودفعه إلى الخلف نحو المستنقع، بحيث غطى مهند بالكامل. استمر إطلاق النار حوالي نصف دقيقة، قام بعدها الجنود بإحصاء الجثث ليكتشفوا أن أحد الأشخاص ما زال حيا يئن من الألم، فعاجلوه برصاصات أسكتت أنينه. لكنهم لم يكتشفوا غياب مهند.

غادرت الحافلة وسيارات اللاند كروزر المنطقة وبدأت الجرارات تقترب. في هذه اللحظة سحب مهند نفسه من تحت جثة الرجل المصري واختبأ بين أعواد القصب بشكل تعذر على سائق الجرار مشاهدته. وتمكن مهند من الإحساس بطعم الدم لكنه لم يجد أية جروح في جسده، بينما كان يشاهد الجرار يقوم بطمر جثث الذين تم إعدامهم ويغطيهم بوحول المستنقع.

بعد مغادرة الجرار، شق مهند طريقه إلى القناة وواصل السير حتى شروق الشمس حيث انتهى إلى مدينة الحلة قرب مبنى المحكمة. ذهب إلى النهر ليغسل جسده مما علق به من بقايا الشاب المصري. خلال ذلك لمحه أحد الأشخاص فسأله عن أسباب وجود بقايا بشرية على جسده، فلم يرد عليه مهند، لكن الرجل عرض عليه المساعدة وآواه وأطعمه وأوصله إلى مكان قريب من منزله. وحينما وصل مهند إلى المنزل تبين له أن الجيش قد دمر منزله. ولحسن الحظ لم يصب أحد من أفراد أسرته بأذى. وانضم مهند إليهم لاحقا من غير أن يخبرهم بما حدث، لكن زوجته اكتشفت ما حل بها من خلال ما كانت تسمعه من كوابيس أثناء نومه.

ذهب مهند لمراجعة أخصائي نفسي، لكنه لم يخبره حقيقة ما تعرض له. وبعد بضعة أشهر رأى علي، الذي سبق أن شاهده في القاعة، حيث كان يعتقد كل منهما أن الآخر قد أعدم. وتوافق الاثنان على عدم التحدث إلى أي شخص عما تعرضا له، قائلين لبعضهما البعضه: «مفتاح سلامتنا وبقائنا على قيد الحياة هو في حفظ لساننا». كما أنهما تعاهدا على أن يظهرا كراهيتهما لبعضهما البعض بحيث لو أن أحدا منهما اعتقل واعترف، لادعى الآخر أن ذلك كذب وادعاء زائف. كما قاما بتزوير بعض الوثائق وحصلا على بطاقات هوية جديدة، ولم يتحدثا عما واجهاه من خوف ورعب. لقد عاشا في خوف استمر ١٢ عاما؛ خوف من أن يفتضح أمرهما وإعادة اعتقالهما وتعذيبهما أو قتلهما. مهند فقد الثقة في كل شيء وكان يشعر برعب وهلع كلما توقفت سيارة أمام منزله.

وأخيرا، وبدافع الخوف، غادر مهند العراق إلى سورية عام ٢٠٠٠ لكنه عاد بعد سقوط نظام صدام حيث التقى بعلي، وهما الآن صديقان حميمان. يقول مهند: «لأول مرة منذ ١٢ عاما أشعر أنني أعيش حرا بلا رعب ولا خوف». وقد انتهى الأمر بمهند إلى العمل مع سلطة الائتلاف المؤقتة واتحاد حقوق الإنسان في الحلة. ■

أحد الضحايا الذين عثر عليهم في مقبرة المسيب، وما زالت عيناه معصوبتان.

أشلاء عراقيين نقلت من مقبرة جماعية في المسيب، ملفوفة بأكفان من الكتان.

...ايا ويضعونها في تسلسل أبجدي.
...لف في الخرق ويؤخذ إلى مشرحة

رواية حامد

حامد* من مواليد الحلة عام ١٩٦٣، ترك الدراسة بعدما أنهى الصف التاسع وبدأ يعمل في مخبز عائلته. عام ١٩٨٢ ألحق بالخدمة العسكرية الإلزامية أسوة بكل الذكور العراقيين وشارك في الحرب العراقية الإيرانية حيث جرح عام ١٩٨٥ ولكنه استمر في الخدمة العسكرية حتى عام ١٩٩١.

شارك حامد في الانتفاضة التي تلت تراجع صدام عن الكويت وجنوب العراق والتي قام خلالها عدد كبير من أفراد الجيش العراقي بالمشاركة في قبل أعضاء حزب البعث في الجنوب، حيث قوبل ذلك بانتقام وحشي مارسه رجال صدام في مارس (آذار) عام ١٩٩١. كان الانتقام في منتهى القسوة والبطش: الإعدامات عمت العراق ونشر صدام قواته في أرجاء البلاد وفرض حالة الطوارئ والأحكام العرفية.

يذكر حامد أنه شاهد امرأة وطفلا يعبران الطريق بعدما تلقيا الإذن بذلك. خلال العبور سقط شيء من يد الطفل فانحنت الأم لالتقاطه. وبمجرد أن فعلت، تلقت رصاصات أودت بحياتها. وكانت الطائرات تحوم فوق مدينة الحلة وترمي المنشورات التي تطلب من السكان مغادرة المدينة لأنها سوف تتعرض لقصف كيماوي مما أصاب السكان بالذعر. وراحت وحدات من الجنود تجوب الشوارع بمكبرات الصوت طالبة من الجنود الالتحاق بوحداتهم واعدة بأن يشملهم قانون العفو إن فعلوا. ولكن بالطبع لم يصدق أحد ذلك.

حامد وشقيقه حيدر الذي كان في التاسعة عشرة يومذاك قررا مع جندي سابق أن يفروا إلى بغداد ظنا منهم أنهم سيكونون أكثر أمانا. وبمجرد عبورهم الجسر الذي يؤدي إلى بغداد، أوقفتهم نقطة تفتيش عسكرية، حيث تم تعصيب عيونهم وتوثيق أيديهم إلى ظهورهم، واقتيدوا مع ١٨ شخصا آخر إلى معسكر المحاويل.

في ساحة المعسكر، استطاعوا سماع أصوات مواسير وأسلاك تهوي على أجساد أشخاص محتجزين يصرخون من ألم الضرب. وقد أجبرت المجموعة التي تضم حامد على القرفصة في الساحة لساعات طويلة. وكان الضرب مصير أي واحد يسقط أو يتحدث. بعد ذلك سيق الجميع كقطعان الغنم، بينما كان الجنود يتهكمون عليهم ويسخرون منهم.

رفعت العصابات عن أعينهم قرب مدخل القاعة الكبيرة وكان حامد يسمع أصوات الجماجم التي تكسر، وحينما التفت قليلا، وجد رجلا مسنا ملقى على الأرض والدماء تتدفق من رأسه. كان الرجل واحدا من الذين سقطوا على الأرض خلال المسير.

تم تجميع المحتجزين وهم ملتصقون ببعضهم البعض في قاعة تضمهم مع حوالي ٤٠٠ شخص. وكان حامد في زاوية القاعة قرب النافذة، وكانت هناك نار أوقدت في حلقة كبيرة من الإطارات المطاطية. شاهد حامد رجلا عرفه من قاعة أخرى. كان ذلك الرجل ينزف دما وكان يتعثر في الساحة بينما كان الجنود ينهالون عليه ضربا بالأسلاك، وما لبث أن خرج جنود آخرون من القاعة التي كان حامد فيها، لينضموا إلى زملائهم في التناوب على ضرب الرجل الذي سقط مغشيا عليه. عندها حمله الجنود ورموه في حلقة النيران المتأججة.

استطاع حامد مشاهدة ضابط اسمه أبو ديبة في الساحة. أمر أبو ديبة جنوده برمي واحد من رجاله في النار، وكان السبب أن ذلك الجندي من رجال أبو ديبة اعترض على ما يمارس من قتل، فكان أن أمسكه ثلاثة جنود ورموه في النار. شاهد حامد ذلك الجندي يحاول الوقوف، لكن رجلاه خانتاه والتوتا في النيران المشتعلة. وفقد حامد ذاكرته.

بعد ساعات من الانتظار ملأ الجنود القاعة بمياه ارتفعت حوالي ست بوصات، مما منع أي واحد من الجلوس على الأرض أو النوم في ذلك الفصل من الشتاء ذي البرد القارص. وانقضى على وقوفهم حوالي ٢٤ ساعة كان خلالها الجنود يدخلون وينادون بعض الأشخاص. ونادوا على شخص باسمه: «أحمد حسن، عائلتك هنا وتود رؤيتك. الرجاء التقدم للالتقاء بها». وبمجرد اقتراب أحمد، كان يقتاد إلى الساحة حيث تقيد رجلاه إلى عمود أو قطعة من الخشب، يقوم الجنود بعدها برفعه وخفضه. ومع كل طلعة ونزلة كان الجنود يلهبون رجليه وظهره بالأسلاك. وكلما فقد الرجل الوعي، صبوا عليه ماء باردا ليعيدوا ضربه وجلده من جديد.

دخل جندي إلى القاعة وقال لهم: «لقد قتلنا المجرمين وسوف نأخذكم إلى وحداتكم». عندئذ تم ربط أعينهم واقتيادهم إلى الخارج. كان بإمكان حامد أن يسمع أصوات الحافلات. طلب الجندي منهم التقدم إلى الأمام بسرعة حيث يتم تلقيهم. أولئك الذين سقطوا أثناء الركض أو أبطؤوا السير كانوا يضربون بالمواسير. كانت تسمع أصوات سقوط

* تم تغيير كافة الاسماء.

عراقيون يحفرون بحثا عن أشلاء ضحايا في مقبرة جماعية في المسيب.

عويضة عبد العامر تنعى اثنين من ذويها اثنا عشر على جثثهم في مقبرة جماعية في المسيب.

بعد التعرف والتصنيف، تلف بقايا ا
مشرحة مؤقتة.

أناس على الأرض يرافقها أصوات تكسير عظام وتدفق صنابير من الدماء من أجساد الضحايا، وتختلط بأصوات صراخ أولئك الذين كانوا يضربون حتى الموت.

أما الذين لم يموتوا وعددهم ٥٠ شخصا، فقد حملوا إلى حافلات ذهبت بهم في جولة استغرقت ١٥ دقيقة في شارع وعر.

عندما توقفت الحافلات، كان يتم إخراج المحتجزين في مجموعات من ٣ إلى ٤ أشخاص ويقادون إلى كومة ترابية. وعندما سأل الحارس عما إذا بقي أي محتجز ورد عليه زميله بالنفي، سمع حامد صوت الرصاص ينهال، وأصيب هو بخدش في عنقه من شظية إحدى الرصاصات، كما شعر أن الرصاص اخترق رجله. قوة إطلاق الرصاص أوقعته أرضا ليسقط في حفرة كانت في الواقع مقبرة. وقد وقع على رأسه بينما بقيت رجلاه تتدليان في الهواء. وشعر بسقوط عدد من الأجساد عليه لتدفعه نزولا في المنحدر. أطلق الجلادون جولة أخرى من "رصاصات الرحمة" على الحفرة للتأكد من أن أحدا لم يبق حيا. وساد السكون.

بعد دقائق قليلة غادرت الحافلات المكان وقام جرار بردم المقابر. وكانت الحفرة التي وقع فيها حامد على المنحدر الهابط إلى المستنقع. وبسبب تزحلقه في المنحدر لم يطمر سوى جزئيا. استطاع في هذه الأثناء سماع رجل مصري يئن بالقرب منه في الحفرة. قال له الرجل إن الجنود قد غادروا وأن باستطاعته مشاهدة أضواء السيارات وهي تبتعد. وعندما سأل حامد الرجل عن مدى إصابته أجابه هذه بأنها طفيفة وأنها في أصابع القدم. ولم يستطع حامد التحرك بسبب إصابة رجله ولأنه كان مطمورا جزئيا. فما كان من المصري واسمه محمد إلا أن سحبه من الطين ليتبين بعد ذلك أنه أصيب في قدمه إصابة بليغة جعلت العظم يظهر على سطح الجلد.

قطعا النهر بعدما ساعده محمد في الزحف إلى الضفة وسحبه بواسطة عود من القصب. اختفى كلاهما في إحدى القنوات وشعر حامد ببرد شديد وظن أنه على وشك الموت، لكنه طلب من المصري أن يعود ويسأل عن شقيقه. وقد تأكد محمد أن كل من كان في الموقع لم يعد حيا.

واصل حامد ومحمد سيرهما في القناة وقطعا أرضا زراعية بعدما شربا من ماء النهر واستمرا في السير بهذه الصورة لعدة أيام إلى أن شاهدهما أحد المزارعين في أرضه فقام بإطلاق النار على المصري.

لكن حامد طلب من المزارع التوقف عن إطلاق النار. عندها أخذهما المزارع وآواهما في إحدى مبانيه، لكنه أبلغهما بأنهما لا يجب أن يبقيا هناك مدة طويلة. ثم تركهما واعدا بالعودة إليهما في غضون ساعة واحدة. وكان محمد وحامد على يقين من أن الرجل سيعود مع الجنود، لذا طلب حامد من محمد مغادرة المكان لينفذ بجلده، لكنه رفض ذلك.

عاد المزارع بالطعام والشاي، وبعدما تناولا الطعام، عالج المزارع الجرح الموجود في رقبة حامد لكنه لم يتمكن من معالجة رجله قبل طلوع الصباح. وعند الفجر عاد المزارع قائلا إنه لم يستطع النوم وأنه كان يصلي ويدعو له بالشفاء طيلة الليل. أعطى المزارع مخدة لحامد وطلب منه وضعها على وجهه، بينما يقوم هو باستخراج الرصاصتين من رجله. واستخدم في ذلك كماشة ومقص صدئان واخرج بعض فتات العظم خلال استخراج الرصاصتين، وقام بعد ذلك بتجبير رجله. ثم أعطى الاثنين حمارا وطعاما يكفي لثلاثة أيام.

امتطى حامد ظهر الحمار وقام محمد بقيادته دون أن يشعر أي منهما بمرور الوقت، وشعرا بأن أحدا ما يلاحقهما.

وصلا أخيرا إلى قرية قرب الحلة حيث تسكن عمة حامد. أخذته عمته إلى مزرعة العائلة وأمضى محمد الليل هناك ثم انطلق شمالا في اليوم التالي. وقد تلقى حامد العلاج الطبي في المزرعة من أحد الأطباء المقربين إلى الأسرة.

ثم قرر حامد الالتحاق مجددا بوحدته العسكرية. ارتدى بزته العسكرية وطلب من أحد أفراد أسرته الذهاب به إلى العمارة حيث يوجد عدد من أصدقائه. كان هناك عدة نقاط تفتيش عسكرية على طول الطريق، لكن أحدا منها لم يوقفه. وبعدما نفذ وقود سيارة قريبه، شاهد شاحنة تنقل جنودا عاديين. أوقف حامد الشاحنة وأبلغ من فيها أن مصاب في ساقه، من دون أن يخبرهم بالتفاصيل. لقد شعر أنهم أدركوا ما جرى وأنهم نظروا إليه بإعجاب كبطل وسمحوا له بالانضمام إليهم. أخذوه إلى المستشفى العسكري حيث عولج من قبل أنصار صدام بعدما أخبرهم أنه تعرض لحادث، من دون أن يذكر شيئا عن الرصاص. وعندما أظهرت الأشعة وجود رصاصة ثالثة في رجله، أصبح قلقا وخائفا خشية افتضاح أمره.

لضحية بالكتان وتؤخذ إلى

بعد التعرف والتصنيف، توضع العلامات وتلف الأشلاء في الكتان وتؤخذ إلى مشرحة مؤقتة.

عمال يبحثون عن بقايا بهدف التعرف إلى هوية أصحابها.

بعد ذلك أعطي وظيفة للعمل في بغداد مع واحد من أعلى مسؤولي الحزب، وذلك كمراقب مقاول مباني. وعوضا عن ذلك قرر شراء سيارة أجرة وعمل عليها سائقا كما أنه فتح محلا للزهور في بغداد.

وفي عام ١٩٤٤ أوقفته «شرطة الاقتصاد» وعذبته لمدة ٣٤ يوما بالضرب وبالصدمات الكهربائية في الأذنين واللسان والأنف. كانوا يريدون منه أن يعترف بأنه عضو في حزب آخر غير البعث. وكما هو معروف، فالأحزاب في العراق كانت محظورة باستثناء حزب البعث الحاكم. ثم تم إطلاق سراحه في النهاية، لكنه سجله "الإجرامي" منعه من إيجاد أية وظيفة، مما دعاه للعودة إلى محله لبيع الزهور.

وبعد سنتين، تم توقيفه في عام ١٩٩٦ من قبل شرطة المخابرات حيث تلقى ضربا مبرحا وتعذيبا دام ١٨ يوما سؤل خلالها عن الانتفاضة. ثم أطلق سراحه لكنه أمر بإغلاق محل بيع الورود، بعدما اتهموه أنه يستخدمه لعقد اجتماعات سياسية.

أقفل حامد المحل وعاد إلى الحلة مع زوجته وصغيريه. ومنذ سقوط نظام صدام وهو يساعد اتحاد حقوق الإنسان في الحلة على كشف هويات الذين يشتبه في أنهم مجرمون، كما ساهم في المساعدة على كشف الشواهد المتعلقة بضحايا المقابر الجماعية. ■

متطوعون خلال فترة راحة لأداء الصلاة بعد عمليات تصنيف الوثائق.

شعار منظمة متطوعي الجذور الخضراء، اتحاد السجناء الأحرار والأشخاص المفقودين.

مسؤول منع الإيذاء البدني في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية جان كيران يقوم بتقييم موقع مقبرة جماعية.

For more information, contact
U.S. Agency for International Development
Washington, D.C. 20523-1000
Telephone: 202-712-4810
Internet: www.usaid.gov
PN-ACW-223
Arabic version: PN-ACW-224

لمزيد من المعلومات يرجى الاتصال بـ:
الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية
واشنطن دي سي ٢٠٥٣٢ - ١٠٠٠
هاتف رقم: ٤٨١٠-٧١٢-٢٠٢
عنوان الإنترنت: www.usaid.gov
النسخة الإنجليزية: PN-ACW-223